أزمة اللغة العربية التشخيص والعلاج

إعداد

أ.د/علي أحمد مدكـور

أستاذ التربية–جامعة القاهرة

أزمة اللغة العربية التشخيص والعلاج

أ.د/ على أحمد مدكور

أزمة اللغة العربية: التشخيص والعلاج

اللغة قدر الإنسان وهي عالمه، فحدود لغة الإنسان هي حدود عالمه، إنها ولاء وانتماء، وثقافة وهوية، ووطن وشخصية، وهي الأم التي تنسج شبكة الوفاق بين أفراد المجتمع وجماعاته، ونظمه ومؤسساته، وقيمه ومعتقداته، فلا وفاق بدون لغة، ولا مجتمع بدون وفاق.

إن الإنسان يعني اللغة، واللغة تعني المجتمع، فالأمة التي تحافظ على لغتها هي في الواقع تحافظ على مقومات شخصيتها، وعلى أمنها الثقافي والحضاري، ومن ثم تحافظ على بقائها بين الأمم.

وكما تسهم اللغة في صياغة المجتمع فإن المجتمع يسهم بدوره في صياغتها وتطويرها، فالجماعة الناطقة باللغة هي التي تهب الألفاظ معانيها، وتعرِّب من المفردات ما يعبر عن مستحدثاتها ومراميها.

صحيح أن اللغة تشارك الأمة أقدارها فإذا ضعفت الأمة ضعفت اللغة، وإذا ماتت الأمة ماتت اللغة، ولا أمل في بعثها من جديد، أما اللغةُ التي تبقى بعد تفرق أمتها وضعفها، فهي التي أودعتها السماء رسالة سامية، وأودعها العلماء والشعراء والأدباء قيما باقية، وهذا هو شأن اللغة العربية، التي تسهم بقوة في الحفاظ على أمن الأمة الثقافي رغم ضعفها العلمي والسياسي والاقتصادي.

واللغة منهج للتفكير، ونظام للاتصال والتعبير، فثقافة كل مجتمع كامنة في لغته، وفى معجمها، وصرفها، ونحوها، ونصوصها، وفنها، وأدبها ... فلا حضارة إنسانية ولا قوة ثقافية، ولا قدرة معرفية، دون نهضة لغوية(١).

يقول بنجامين فرانكلين: إن في اللغة "**ما ورائية خفية**" تحدد فكر الناطقين بها وتوجهه، وترسم له قدره، فاللغة ليست مجرد نظام لساني للتعبير عن الأفكار والآراء، وإنما هي منهج يَصْقُلُ الأفكار والآراء، ويعمل على إرشاد نشاط الفرد الذهني، وتحليل انطباعاته، وإعادة بناء ما في أعماق ذاته(٢).

والعربية لغة موسيقية شاعرة، فإذا تكلم ذو بيان فإنك تطرب لسماعها، وتفهم بيانها، وترتاح لمعانيها، وأصواتها، وهي بهذا الجرس والرنين منحت

العربيَّ التفوق في الأداء كلامًا وكتابة، وغناء وشعرًا على وزن وقافية، لذلك يجب التركيز في مناهج تعليمها على تدريب المتعلم على التذوق الأدبي والفني، وعلى الإحساس بالجمال في الأداء اللغوي.

وهي لغة مميزة من الناحية الصوتية، فقد اشتملت على جميع الأصوات في اللغات السامية، وأصواتها تستغرق كل جهاز النطق عند الإنسان، ابتداءً بما بين الشفتين في نطق حروف كالباء والميم والفاء، وانتهاءً بجوف الناطق في حروف كالألف والواو والياء، لذا كانت قدرتها على استيعاب العلوم في الحضارات الأخرى يسيرة وغير مفتعلة، كما كانت قدرتها على التعبير عن كل مستحدث من العلوم بالقدر نفسه من اليسر.

إن الذين يدرسون ما كتبه الخوارزمي في "مفاتيح العلوم" وابن سينا في القانون وفى الطب، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار... ومن يقرأ معجم الألفاظ الحديثة لمحمد دياب، ومعجمَ العلوم الطبية والطبيعية لمحمد شرف، ومعجم أسماء النبات لأحمد عيسى ... وغير هؤلاء كثيرون، ومن يقرأ المعاجم والترجمات العلمية لمجامع اللغة العربية في القاهرة، والأردن، وسوريا، والجزائر، وغيرها يجد أوضح مثال للغة العلمية التي هي في مجملها لغةٌ إخباريةٌ، تقصد الوصف الموضوعي للظواهر في تراكيب لغوية بسيطة تتوالى فيها المفردات في مواقعها على نسق معتاد، يندر فيها أن يتأخر لفظ عن موقعه أو يتقدم، وتؤدي الألفاظ المعنى المقصود مباشرة، بلا إيحاء ولا ظلال، ولا حشو ولا تكرار[٣].

وبالرغم من هذا الدور المميز للغة العربية في تاريخ الأمة، فإننا نعيش أزمة لغوية طاحنة تلطخ جبيننا الحضاري، وهي دليل على انتكاسة الأمة وتبعيتها، وتخلفها عن الركب ... لقد أصبنا "**بالإيدز**" اللغوي، أو فقدان المناعة اللغوية.

ويمكن إجمالُ أسبابِ هذه الأزمة فيما يأتي[٤]:

١- عدم إلمام الكثيرين منا بجوانب إشكالية اللغة؛ حيث يقتصر تناولها في أغلب الأحوال على الجوانب التعليمية والتعريبية، خوفًا من الخوض في دراسة علاقة اللغة العربية بالدين، والسياسة، والقومية والوطنية، والمعلوماتية والبيولوجيا الجزيئية.

٢- قصور العتاد لمعظم منظرينا اللغويين، خاصة بعد أن أصبحت اللغة ساحة ساخنة للتداخل الفلسفي، والعلمي، والتربوي، والفني، والإعلامي والتقاني.
٣- خطأ التشخيص لدائنا اللغوي، حيث يوجَّه الاتهام إلى إدانة اللغة العربية ذاتها تحت زعم أن هذه اللغة الإنسانية العظيمة تحمل بداخلها كوامن التخلف الفكري والعجز عن تلبية مطالب العصر!(٥).
٤- الابتعاد عن السبب الحقيقي وراء ذلك، وهو العولمة الاقتصادية، وانبهار الجماهير العربية بالثقافة الغربية ولغاتها، وتدهور اهتمامهم باللغة العربية، وضعف اعتزازهم بها، وإلحاقُ أبنائهم بالمدارس الخاصة والجامعات الخاصة، التي تعلم باللغات الأجنبية، والافتخارُ بذلك واعتباره نوعًا من الوجاهة الاجتماعية، ودليلا على التقدم الحضاري!!! وهنا تكون أزمة اللغة العربية دليلا شاهدًا على الانتكاسة الثقافية للأمة في الوقت الحاضر.
٥- غياب إرادة الإصلاح اللغوي؛ فحركات التعريب تواجه معارضة شديدة بعد أن سارت شوطًا لا بأس به من قبل، والحكومات عاجزة، أو فلنقل بصراحة - غيرُ راغبة في فرض تشريع ملزم بعدم استعمال اللغات الأجنبية في التعليم، وفي لافتات المحلات، وغير راغبة في أن تقتدي حتى بإسرائيل التي تحرم استخدام المصطلح الأجنبي الذي يتم إقرار مقابل له باللغة العبرية!
٦- عولمة تعليمنا، بحيث لا تعكس سياساته، ومفاهيمه، وسلوك مدرسيه، وأداء طلابه، ما للغة الأم من أهمية، فالاهتمام باللغة العربية لا يتم إلا من خلال المقرر الخاص بها! وأما المقررات الأخرى فحرة طليقة من قيود العربية والالتزام بها، وفي مقرر اللغة العربية ذاته، يتم اختزال العربية في النحو، ويتم اختزال النحو في إعراب أواخر الكلم! ... وهكذا لم يثمر التعليم العربي - في الواقع - إلا مزيدًا من عزوف الطلبة عن مداومة تعلم لغتهم الأم، وتذوق مآثرها!
٧- التعليم باللغات الأجنبية على مستوى التعليم العام والعالي، وبالرغم من الحقيقة العلمية التي أجمع عليها الباحثون واللغويون، وهي أن التعليم بغير اللغة الأم يغلق مفاتيح الفكر، ويعوق عملية الإبداع والابتكار لدى

المتعلمين، فإن المخططين للسياسة التعليمية قد صموا آذانهم – رغم الاعتراضات المتكررة في كل الندوات والمؤتمرات – عن سماع ذلك، وسمحوا بإنشاء المدارس التي تعلم باللغات الأجنبية على مستوى التعليم العام، وهو الأمر المُحَرَّمُ لدى الدول المتقدمة، كما سمحوا بفتح الشعب والأقسام التي تعلم باللغات الأجنبية على مستوى التعليم العالي حتى في الكليات النظرية!

٨- الربط بين تعليم اللغات الأجنبية وأماني الدخول إلى "**العالم المتحضر**" والحصول على وظائف مميزة في المستقبل، بينما يرتبط تعليم اللغة العربية بالمجردات الغائبة "**كالحفاظ علي الهوية**" و"**الالتزام الوطني**" و" **الولاء والانتماء الثقافي**" ... وغير ذلك مما يغيب عن وعي التلاميذ وأولياء الأمور(٦).

٩- نجاح الاستعمار في تهميش اللغة العربية، وخلق اتجاه سلبي نحوها، وربطها بمظاهر التخلف، عن طريق محاولة طردها من المواقع المتقدمة في الحياة المعاصرة، وللأسف فإن الكثيرين من أبناء جلدتنا يحققون للاستعمار أهدافه في هذا السبيل، حتى أصبح الحراك الاجتماعي للأفراد مرتبطاً باللغات الأجنبية، وبخاصة الإنجليزية، التي أصبحت – وحدها – مناط المكانة الاجتماعية، والدور الثقافي ... وهكذا حدث في ذهن كثير من المثقفين العرب تلازمٌ بين مفهوم التخلف الاجتماعي والتقاني وبين الثقافة العربية وفى أساسها اللسان العربي(٧).

١٠- النظر إلي اللغة العربية بوصفها "وعاء" أو "أداة" أو "وسيلة" للتعليم والاتصال بقطع النظر عن قيمة تعليم العربية لترقية القدرات العقلية، وتنمية مفاتيح الفكر وملكات التأمل والاكتشاف والإبداع.

والسؤال الآن هو:

– كيف نبعث الحياة في كيان هذه اللغة العظيمة تنظيرا وتعليما واستعمالا؟

– كيف نخرجها من دائرة اهتمام المتخصصين فقط إلى الدائرة الأوسع والأشمل، وبخاصة بعد أن صار علم اللغة الحديث يستند إلى الرياضيات، والهندسة، والإحصاء، والمنطق، وعلم الأحياء "البيولوجيا" وعلم وظائف

الأعضاء "الفسيولوجيا" وعلم النفس "السيسيولوجيا" وأخيرًا علم الحاسوب ونظم المعلومات؟

- كيف نُعَرِّبُ نظم التشغيل وننتج لغات برمجة عربية؟[٨]

ولمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، لابد من جهود مخالصة على مستويين:

- مستوى القناعات.
- ومستوى المؤسسات.

فعلى مستوى القناعات:

أولا: لابد من تغيير الذهنية، وتعريب العقل العربي، عن طريق التعليم والتعلم باللغة العربية في جميع مراحل التعليم؛ لأن ذلك هو الأصل الذي لابد من العودة إليه، ويستند ذلك على المنطق العلمي والبحثي الذي نوُجزه فيما يأتي:

١- إن اللغة ليست مجرد وسيلة أو أداة أو وعاء، إنها الرحم الذى يصنع الفكر والولاء والانتماء والثقافة والهوية والشخصية والوطن ... إن اللغة وطن.

٢- إن التعليم والتعلم بغير اللغة الأم يضيع مفاتيح الفكر، ويغلق أبواب الإبداع، فالتعليم بغير لساننا لا يمكن أن يكون ترجمانا صادقا لفكرنا وخيالنا ووجداننا.

٣- إن العقل متكون في جوهره من تقاليد اللسان، فإذا انفصل العقل عن اللسان فإن ذلك يؤدي إلى تردي "القوة العقلية" وإلى التردي الفكري والعلمي[٩].

٤- من الثابت علميًّا أن قيام العضو بوظيفته ينشط العضو، بل ينشئه، ولذا فإن إقصاء اللغة العربية عن أداء دورها في تعليم العلوم يزيدها قصورًا عن أداء هذا الدور، ويبقيها دائمًا خارج السباق، وهذا إضرار بها، وإضرار بالعلم ذاته، وإضرار بمستوى الأمة في نهضتها العلمية والمعرفية والحضارية.

٥- إن ادعاء أن اللغة العربية لا تفي بمطالب التعبير عن العلوم التطبيقية، وأنها قاصرة عن ملاحقة التطور العلمي في هذه المجالات يتناقض مع الحقيقة العلمية في هذا المجال، وهي أنه لا توجد لغة قاصرة، وإنما أهلها

هم القاصرون أو المقصرون، وهذه من ادعاءات المستعمرين للبلاد العربية قديمًا، وقد دحضتها الحقائق العلمية منذ زمن طويل.

أما على مستوى المؤسسات:

- فإن الاقتراح المحدد في هذا السياق هو ضرورة وضع سياسة لغوية تفرضها مجامع اللغة العربية، وتدفع بها إلى المستويات الجامعية والقومية والإقليمية، بحيث تكون همًّا قوميًّا وشأنًا مجتمعيًّا مشتركًا على المستويات التعليمية، والسياسية، والاقتصادية، والمعرفية والإبداعية، وهذا من خلال ما يأتي:

فعلى المستوى التعليمي:

- اللغة تحيا في البيت والمدرسة، وفي الحقل والمصنع، وفي السوق والمتجر، وفي الجامعة ومراكز البحوث، وفي الصحف والمجلات، وفي المسرح والسينما وبرامج التليفزيون، وفي كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية، وهي تحيا وتتطور، وتخلق وتبتكر، وتسير مع الزمن، وتسد حاجات العصر ومتطلبات الحياة.
- وعمل المجامع أن تتابع هذه المسيرة، وتترقب خطاها، تلاحظ وتسجل، تقر ما استقام من الألفاظ والأساليب والتراكيب، وترفض ما اعوج، توحي وتأمر، توصي وتلزم، فيجب أن يكون لرأيها اعتبار، ولتوصياتها تقدير؛ لأن الأمر يرتبط بالهوية والشخصية والأمن القومي.
- وجوب تأخير تعليم أية لغة أجنبية بجانب اللغة العربية في التعليم الأساسي حتى نهاية المرحلة الابتدائية، وذلك في جميع المدارس الحكومية والخاصة والدولية التي يتعلم فيها أبناءُ المصريين.
- التركيز على تعليم اللغة الوظيفية، وعلى تعليم اللغة تعليمًا وظيفيًّا، بالتكيف مع المجتمع ومتطلباته، ومع اللغة المستعملة في مواقع العمل، ووصل لغة المدرسة بلغة الحياة.
- النظر إلى اللغة العربية بوصفها وَحدة تتكامل فيها الفنون اللغوية، لا بوصفها فروعًا أو جزرًا منعزلة لا يجمع شتاتها جامع.
- الدخول بالعربية إلى مجال البرمجة الحاسوبية، وإلى تعريب نظم التشغيل، وإلى الترجمة منها وإليها، حيث إن النظام الاشتقاقي في اللغة العربية بينه

وبين البرمجة الحاسوبية والمنطق الحاسوبي من الصلات ما يكفي لإلهاب خيال المتعلمين وجذبهم إلى دراسة العربية والنحو العربي.

- تعريب نظم التشغيل للحاسوب، وذلك لضرورة توفير ثنائية لغوية متوازنة بين الإنجليزية – أو غيرها – وبين العربية، بحيث يتم تحويل البرامج الحاسوبية من الإنجليزية إلى العربية مباشرة، وبذلك يتاح هذا الرصيد الضخم من المعلومات والمعارف الموجودة في اللغات الأخرى، إلى الناشئة والشباب العربي مباشرة.
- تصميم لغات برمجة عربية: لقد أصبحنا في حاجة ملحَّة إلى إعادة النظر في مناهج تنظيرنا اللغوية، وذلك بهدف بلورة أساليب متقدمة لصياغة قواعد النحو والصرف، وذلك تمهيدا لتطويع اللغة العربية لمطالب المعالجة الآلية، ولا نقصد بذلك اختزال قواعد اللغة العربية أو تعديلها، بل توافر البنى الأساسية اللازمة لمعالجتها آليًّا(١٠).
- إعادة تصميم مناهج اللغات في منظومة واحدة، وأن يكون لتعليم اللغات قسم واحد لا أقسام متعددة، وأن يقوم تعليم اللغات علي التكامل بدلا من التنافس والتناحر.
- زيادة درجات اللغة العربية في المراحل المختلفة، عناية بها وزيادة عدد الحصص المخصصة لها في الجداول الرسمية.
- العناية بالمعلم وطرائق التدريس، فقد أثبت البحث العلمي والواقع العملي أن المعلم – كان ولا يزال وسيظل – هو الذي يصنع الفارق في نجاح منظومة التربية والتعليم أو إخفاقها.
- الإبقاء علي النظامين التتابعي والتكاملي في إعداد المعلمين الأكفاء وإعادة هيكلة النظام التكاملي، بحيث يتكامل فيه الإعداد الأكاديمي التخصصي مع الإعداد التربوي والثقافي.
- الاهتمام بالإعداد الثقافي والتخصصي والتربوي لكل المعلمين بعامة، ولمعلمي اللغة العربية بخاصة، وتدريبهم دوريًّا أثناء العمل لتجديد معارفهم ومهاراتهم، وجعل المدرسة وَحدة تدريبية.
- قصر القبول بكليات التربية على من لديهم الاستعدادات والقدرات ليكونوا معلمين مهرة، وبذلك يسهمون في تحويل التربية والتعليم إلى مهنة لها أصولها وقوانينها وقواعدها وأخلاقياتها الباقية.

- تعيين أوائل الكليات المختلفة ممن لديهم الرغبة والاستعدادات والقدرات معلمين للتعليم الابتدائي، بعد إعدادهم تربويًّا ومهنيًا، وتقديم الرعاية الملائمة والمقابل المادي والمعنوي المتميز لهم، وبذلك يسهمون في تغيير نظرة المجتمع وثقافته نحو مهنة التعليم عامة، ومعلم التعليم الابتدائي خاصة.
- وضع شهادة دولية للغة العربية مصممة ومنفذة على المستوى القومي للأمة العربية، بحيث تلزم كل العرب في شتى أقطارهم أن يطلبوا من غير العرب الساعيين لآفاق العلاقات العربية الحصول على شهادة "**اللغة العربية الدولية**"؛ لتيسير العلاقات، وتسهيل المصالح المشتركة.
- إن هذا المشروع ضرورة عصرية للدفع بلغتنا الفصيحة إلى ميدان السباق الدولي للغات الحية **فشهادة اللغة العربية الدولية** تتيح فرصة كبيرة لتوطين العربية في أجهزة الحاسوب، وفي شبكة المعلومات الدولية، وتعين في تعريب برامج التشغيل، وفي المشاركة الفعالة في النشاط الكوني.

<u>وعلى المستوى السياسي:</u>

- أرى أننا بحاجة إلى إثارة وعي السياسيين في الوطن العربي بخطورة المشكلة اللغوية، وأن قضية اللغة هي قضية أمن قومي، وأنها من الخطورة والأهمية بحيث يصعب علاجها أو تناولها بدون إستراتيجية واضحة للإصلاح اللغوي الشامل، وذلك في إطار خطة قومية أكثر شمولا، لإعداد الأقطار العربية للدخول إلي عصر المعلومات والمعرفة، بحيث تستند هذه الخطة إلى المقترحات الآتية:
- سيادة اللغة العربية في الوطن العربي سيادة كاملة تعليما وتعلما، تأليفا وترجمة ، سياسية واقتصادا واجتماعا، أدبا وفنا، ثقافة وحضارة، إبداعا وابتكارا.
- تشجيع تعريب الكتب والبحوث الحديثة وترجمتها فور نشرها، واستخدام الأعمال المعربة والمترجمة في التعليم والتعلم، في التعليم العام والتعليم العالي؛ إذ إن الفكر الأصيل لا يبنى في عقول أبناء الأمة، إلا إذا كانت تُعلم بلغتها وتفكر وتبدع بها، ولقد أدى الاهتمام بالتعليم باللغات الأجنبية

إلى إهمال حركة التعريب، بل وإلى معارضته من قبل كثيرين من الأكاديميين، بل ومن بعض رواد الحداثة وما بعدها.

ولتعريب التعليم مقاصد كثيرة، منها ما يتصل بالتنمية الإنسانية الشاملة للأمة ومنها ما يتصل بالأمن الثقافي، والأمن الاقتصادي، والأمن الاجتماعي، والأمن السياسي، والوحدة العربية والإسلامية، ومنها ما يتصل – قبل كل ذلك وبعده – بقدرة أبناء الأمة علي الابتكار والإبداع، وكل ذلك يعزز الأمن القومي للأمة على جميع الجبهات.

ولكن نجاح حركة تعريب الفكر والعلم والتعليم مرهون بما نبذله من جهتنا من عمل جاد في تطويع العربية، بتوسيع أقيستها وضوابطها، والكشف عن ذخائرها من الألفاظ والصيغ والأساليب؛ لتواكب الحركة العلمية والتدفق المعرفي المتزايد، وبما نبديه من جرأة محمودة في تحطيم الحواجز اللغوية التي تعوق تلك الحركة الواعدة.

إننا مطالبون بأن ننقل العلم إلى لساننا، بدلا من نقل أبنائنا وباحثينا إلى ألسنة الآخرين وهذا يتطلب الاجتهاد في تعريب العلوم، فهذا هو الذي يحول مجتمعاتنا من مجتمعات مستهلكة لما أنتجه الآخرون إلى مجتمعات تسهم بكل طاقاتها الفكرية والثقافية في بناء مستقبل الإنسانية بجزء عربي بحت.

مجمل ما سبق يعني أن التعريب – بأوسع معانيه – هو سيادة اللغة العربية في المجتمع، وإعطاؤها دورها الكامل في التفكير والتعبير والتواصل، بحيث تكون المعبر الرئيس في الإنتاج المادي والفكري، وفي تسيير مختلف المرافق والمؤسسات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، كما تكون هي المعبِّر عن عقيدة الأمة وتصورها الكلى للكون والإنسان والحياة وعن رؤيتها للواقع وتصورها للمستقبل الافتراضي واحتمالاته.

<u>وعلى المستوى الاقتصادي:</u>

إننا عندما نسأل بعض زملائنا الذين يدرسون باللغة الإنجليزية عن أسباب عدم تدريسهم الطلبة باللغة العربية، يقولون: السوق يحتاج هذا! لقد أصبحنا عبيدًا للسوق ولاحتياجات الشركات المعتدية على القارات، مع أن الصحيح هو العكس.

لقد أصبح من منطوق هؤلاء أن اللغة العربية غيرُ صالحة لتلبية حاجات السوق، مع أن الاستنتاج الأقرب إلى الدقة هو أن رقي المجتمعات وتخلفها لا

يتوقف على بنية لغاتها، بل يتوقف على استخدامها وتطويرها من قبل الجماعة الناطقة بها، وعلى نوع الخطاب الذي يستعملونه، ومدى شفَّافيَّتِه، ووضوحه في إقامة الحجج والفروض، وحيثيات البرهان، ومدى دقته في وضع الأجندات وفى حوار الشركاء أو الخصوم(١١).

لقد أجمع علماء الاقتصاد على أن اللغة **عبارةٌ عن** "**رصيد**"، **وأن تعلم اللغة الأم أهمُّ استثمار عام في التنمية البشرية**، وأن "البلاد المجزأة لغويًّا بلادٌ فقيرةٌ غالبًا، وأنه من المستبعد أن يكون المستوى المرتفع من النمو الاجتماعي والاقتصادي متوافقًا مع التعدد اللغوي، ويعكس هذا اعتقادًا شائعًا عند كثير من المخططين اللغويين، يستند إلى درجة عالية من التوافق بين الأحادية اللغوية الفعلية، وبين التطور الحاصل في البلاد المتقدمة اقتصاديًّا(١٢).

كما يربط علماء الاقتصاد بين الكفاءة اللغوية وكفاءة الاتصال وبين الكفاءة الاجتماعية والاقتصادية، ويعدون اللغة هي العنصر المركزي لكفاءة الاتصال، وأنه العنصر الذي يمكن تقييمه علي نحو أسهل في شكل التكلفة المالية، ومن ثم يمكن اكتسابه عن طريق الاستثمار الرشيد، والاستعمال الصحيح للغة، وعن طريق تأصيل الأنماط اللغوية في السلوك الاجتماعي والاقتصادي وفي حل المشكلات الاقتصادية، واتخاذ القرارات الاقتصادية الرشيدة(١٣).

إن البلاد الاستعمارية عندما أرادت أن تحول المستعمرات إلى أسواق لتصريف بضائعها ومنتجاتها، تركت البضائع تجوب المستعمرات بأسمائها الأصلية، ومهدت الأرض بإحلال لغاتها في المستعمرات محل اللغات المحلية، فكانت النتيجة أنها احتلت الأرض ومن عليها، **فهل المطلوب أن نتحول إلي قطيع عند صاحب السوق الذي عصاه جاهزة لكل شاة شاردة؟!**

وعلى مستوى الإبداع والتذوق وبناء مجتمع المعرفة:

تُجمع بحوثُ علم النفس على تأكيد العلاقة الوثقى بين اللغة والإبداع، وعلى أن اللغة الأم هي المصدر الرئيس للتفكير الأصيل والإبداع، إذ إن الفكر الأصيل لا ينمو في الأمة إلا إذا كانت تعلم بلغتها وتكتب وتؤلف بها(١٤).

إن هناك فوارق بين المعلومات، والمعرفة والحكمة في استخدام المعرفة. ونحن نحتاج إلى الانتقال من مرحلة "التحصيل المعلوماتي" واجترار المعرفة

التي أنتجها الآخرون إلى "إنتاج المعرفة" واستخدامها بحكمة، وهذا مرهون بأن يتوحد لساننا مع خيالنا ووجداننا وجناننا.

إن غاية ما يمكن الوصول إليه من تعليم العلوم بغير العربية، أن نصل إلى المعلومات لا إلى المعرفة والحكمة، إلى القشور لا إلى اللب، وإلى العرض لا إلى الجوهر.

فاللغة كائن حي تنطبق عليه – إلى حد كبير – قوانين النمو من حيث الميلاد والطفولة، والشباب، والكهولة والشيخوخة، واللغة التي يعزلها أصحابها عن العلم يكون مصيرها الضعف والاضمحلال.

وتظهر ملكات الإبداع بلا ريب في حدود القدرات اللغوية التي منحها الله للوليد البشري، وفى حدود استعداداته اللغوية، لكن هذه الملكات والاستعدادات – مهما كانت قوية – تضعف وتموت إذا لم يمارس الطفل لغته الأم استماعا، وتحدثا، وقراءة، وكتابة، وتعليما، وتعلما، فملكات الإبداع تنمو بأن يعيش الطفل لغته التي خالطت شعوره وفكره.

إن تعاضد قوى النفس الداخلية في تحصيل المعرفة يكون أقوى من مجرد تعاضد قواها الخارجية، وتفسير ذلك أن "القوى اللغوية" و"النفسية" قوة واحدة في واقع الحال، ومن شأنها إن تألفت أن تنتقل بالهدف المعرفي من مجرد التقبل والجمع إلى النقد والفرز، ومن مجرد التكديس وتخزين المعلومات إلى إعادة صياغتها في نسق معرفي ينشط قوى العقل، ويمتزج بالخيال الفعال الذى يكون – حينئذ – قادرًا على الإبداع والابتكار (١٥).

وأنه لمما أثبته العلم وأيدته الملاحظة أن تعليم العلوم باللغة الأم ييسر فهمها، ويساعد في دقة الدلالات في أذهان المتعلمين، ولقد أظهرت التجارب العديدة النفسية والتربوية التي أجريت على نصوص استُمع إليها وقرئت باللغتين العربية والإنجليزية – أن ثمة فارقًا كبيرًا في الفهم والتحليل والتفسير لصالح العربية.

إننا نعلم العلوم باللغات الأجنبية منذ زمن طويل، ولم يحقق لنا ذلك أي تقدم في مجال العلم، ولا في المجال اللغوي، بل العكس قد حدث .. فقد أدى ذلك إلى ضعفنا العلمي، وضعفنا اللغوي، وشيوع الازدواجية اللغوية، وشيوع مقولات أن التعليم باللغات الأجنبية سيلحقنا بالأمم المتحضرة، وبسوق العمل

... وغير ذلك من المقولات التي لم يثبت صحتها، فأعلى معدلات البطالة من خريجي الجامعات.

فالتعليم باللغة الأم يؤدي إلى تحقيق التذوق، الذي هو "**حصول ملكة البلاغة للسان**"[١٦] على حد تعبير ابن خلدون، فالتذوق يحصل من خلال ممارسة المتعلم للكلام العربي الفصيح وتكراره على المسامع، والتفطن لخواص تراكيبه واكتساب القدرة علي التذوق إنما يكون بمخالطة النصوص الجميلة من الكلام العربي: شعره ونثره، ومداومة ذلك، وممارسته حتى يصير ملكة متقرره في العقل واللسان.

إن عزل اللغة عن علوم التقانة هو عزل للمجتمع عن هذه العلوم، وهذا ما تفعله الكليات العلمية في جامعتنا هذه الأيام، فالتنمية الإنسانية الشاملة تتوقف إلى أبعد الحدود على ما لأفراد المجتمع من قدرات علمية، ومهارات فنية، وطاقات تكنولوجية، فرهان التنمية مرتبط اليوم بمدى السيطرة علي هذه المجالات الحيوية، ولكن أنى لأفراد المجتمع السيطرة على هذه المجالات وهي حبيسة مراجع لا يستطيعون قراءتها، وتدرس لأبنائهم بلغات لا يفهمون منها إلا القليل؟!

يلخص لنا الدكتور يعقوب الشراح القصة قائلا: "يبدو أن مشكلة التعليم بغير اللغة العربية إنما تهدف محاربة اللغة العربية، والاتكال على ما ينتجه الغرب في العلوم والطب والمعرفة بلغاتهم، هروبًا من الاعتماد على الذات، والتفكير في الجديد، والتراجع في الإبداع والإنتاج والاستهلاك الثقافي والعلمي المستورد، الذي يماثل استهلاك أية سلعة تجارية أو غذائية مستوردة، وما علينا إلا أن نستعملها بطريقة مفرطة ونحن في حالة استرخاء دون بذل أي فكره أو جهد"[١٧] وبذلك ندخل في دائرة مجتمعات فقدان المغزى.

وختامًا: إن العقبات أمام لغتنا لا توجد على أرضنا ولا في سمائنا، إلا لأننا أقمناها – أولا – في نفوسنا، أو كما يسميها التقرير الياباني – عن أهداف اليابان في القرن الحادي والعشرين – "تُخوم الداخل"[١٨] The Frontier Within فقد تَخْفَى على الكثيرين حقيقةُ أن الحدود التي تحد من حركاتنا وتطلعاتنا وقدراتنا على الفعل والإنجاز، هي في أغلب الأحيان حدودٌ قائمةٌ بالداخل، وليست نتيجة وجود عوائق أو قيود غريبة عنا، وكما أن السياج

الذي يحوطنا ويحد من حركاتنا قائم في الذات – فقد أقمناه بأنفسنا لأنفسنا – فكذلك تكون القدرة على تخطِّي الحدود وكسر القيود كامنة بالداخل أيضًا.

فـإذا اتجهنـا صـوب أنفسـنا، وقمنـا باسـتنهاض قـدراتنا وقوانـا الكامنـة، فسيمكننا رفعَ الحواجز، وفتحَ حدود المعرفة، والإنجاز صوبَ آفاقٍ لا نهائية، حيث لا يكون لقدراتنا على الفعل والإنجاز حدودٌ قصوى.

الهوامش:

علي أحمد مدكور: التربية وثقافة التكنولوجيا، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٥٦.

عفيف دمشقية: اللغة العربية في مسيرتها التطورية، مجلة قضايا عربية، بيروت، العدد (٤)، السنة (٦)، أغسطس ١٩٧٩، ص٢٩.

محمد حسن عبد العزيز: التعريب في القديم والحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٠م، ص١٤٨.

نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٢٦٥)، يناير ٢٠٠١م، ص٢٢٧.

المرجع السابق، ص٢٣٠ – ٢٣١.

السعيد محمد بدوي: مأزق اللغة العربية في التعليم الخاص: مشكلة وحل مقترح، قدم إلى مؤتمر اللغة العربية في التعليم: الهوية والإبداع، جامعة السلطان قابوس، مسقط، ٢ – ٤ أكتوبر ٢٠٠٤م، ص٦.

محيي الدين صابر: الأبعاد الحضارية للتعريب، ندوة التعريب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢م، ص٧٢– ٧٣.

نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (١٨٤)، شوال ١٤١٤هـ/ أبريل – نيسان ١٩٩٤م، ص.١٣٥

٩ – محمود الربيعي: اللغة العربية في التعليم العالي، ورقة قدمت إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢٠١٠م.

نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، مرجع سابق، ص٣٩١ – ٣٩٢.

علي أحمد مدكور: التربية وثقافة التكنولوجيا، مرجع سابق، ص١٥٩.

فلوريان كولماس: اللغة والاقتصاد، ترجمة: أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٢٦٣)، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ص٣٨.

Raphael, salkie., Linguistics and Politics, Great Britain, unwin Hyman, Ltd, 1990, P.279.

محمد حسن عبد العزيز، مرجع سابق، ص٢٧٢.

محمود الربيعي: مرجع سابق، ص.٢
١٦- ابن خلدون: المقدمة، بيروت، دار القلم، ١٩٧٨، ص.٤٨٣
١٧- يعقوب أحمد الشراح: التربية وأزمة التنمية البشرية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص.٢٠١
١٨- لجنة رئيس وزراء اليابان: تخوم الداخل: أهداف اليابان في القرن الحادي والعشرين، مكتب التربية العربي لدول الخليج، العدد الأول، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص١١ – ١٢.